من أيام الله في رمضان (*)

يطلع رمضان على الأمة. في كل عام وهو أوفر ما يكون عطاءً بين الشهور، وأحفل ما يكون بكل بواعث القوة وخصائص الخلود.

ذلكم هو الشهر الذي أراده الله عنوان إيمان وجهاد، وإعلان فضائل ليس أقلها الأمانة والصبر على المكاره وتربية الإرادة ومراقبة الله، وبحراً لا ساحل له من الذكريات العطرة والمواقف التي كان كل واحد منها نقطة تحول بالغ الأهمية في حياة أمة قُدر لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

لقد شاء الله أن يكون هذا الشهر موئل المؤمن مع دورة الزمن في كل عام من حياته المحدودة الفانية، يتفيأ ظلاله وينعم بمائدة السماء من خلال أيامه، ـ كما تطلع الشمس فتغمر الدنيا بالضياء، وتعطي الأرض قوة الخير والنماء المشرقة ـ وساعاته، فيصلح من شأن نفسه ما فسد، ويرقى في مدارج البر والهدى، ويستأنف إلى مقصوده الطريق.

إذا قلت: رمضان؛ فذكرى نزول القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وإذا قلت: رمضان؛ فساحات الرجولة القادرة والبطولة الصادقة، والإيمان في حركة وعمل وسلوك.. والمواقف التي تعز على الوصف في بدر والفتح وعين جالوت وغيرها.. وعلى هذا الخط الغامر بفضل

(*) مجلة حضارة الإسلام: العددان السادس والسابع، السنة الحادية عشرة، شعبان ورمضان ١٣٩٠هـ، تشرين الأول والثاني ١٩٧٠م.

الله على هذه الأمة. إذا قلت: رمضان؛ فعطاء الله الذي لا ينفد، ورحمته التي وسعت كل شيء، وعتق الرقاب من النار، وفرح المؤمن بفضل مولاه.

وبعد هذا: إذا قلت: رمضان؛ فليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، ومعراج المؤمن إن قامها إيماناً واحتساباً إلى مغفرة الذنوب، وستر الحوبة والعيوب.

و(بدر) وما أدراك ما (بدر) إنها يوم من أيام الله في رمضان، فهي المعركة التي كانت فرقاناً بين الحق والباطل، ومثلاً عظيم الدلالة على أن هذا الصراع الأبدي بين الحق والباطل ليس ضرورياً أن تكون ثمرته بجانب الباطل ـ على عتوه وفاتك سلاحه وجبروته ـ منوطة بوفرة العدد والعُدَّة، بل إن الحق بأهله المستضعفين وفئته القليلة يمكن أن تكون له الغلبة بإذن الله عز وجل، بحيث تتمخض الأحداث عن نتائج مذهلة ضدَّ الباطل وأهله ويشرق على الدنيا مدلول قول الله تبارك وتعالى: ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ**﴾. وما أكرمه نسباً يشهده المتبصِّر المتدبِّر، بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾. أذلةٌ: قليلو العَدد وبعُدَّة لا تكاد تذكر.

وفي ميدان التفسير الأمين للوقائع ودراسة مدلولاتها العميقة من خلال ظروفها زماناً ومكاناً أيام وقوعها، والآثار البعيدة النافعة على المدى في سلوك الأمة وتاريخها الطويل.. أقول: في ميدان التفسير على هذه الشاكلة، يرى المؤمن بعين بصيرته أنه لم يكن عبثاً تثبيت معارك الإسلام قرآناً يتلى وسيرة تحتذى وعلماً ينتفع به؛ وإن أمتنا التي تداعى عليها الأمم،

وتألبت عليها ـ من هنا وهناك ـ صنوف العسف والظلم والاغتصاب، تبدو وهي أشد ما تكون حاجة لتلمس خصائص الخلود في معركة بدر، ومقدار ما يمكن أن تعطيها من المدِّ الإيماني الواعي في واقعها الذي لا تحسد عليه.

وإذا كان المسلمون اليوم يفتقرون إلى تلك الهزة الإيمانية التي تطبع تصرفاتهم بطابع الحركة الواعية والإقدام الذي يتخطى الصعوبات والركام، فإن عليهم أن يذكروا نعمة الله عليهم بما أعطت (بدر) من المثل الذي يحتذى، وبما رسمت للأمة من صور الاستشهاد والخروج على المألوف والانتصار على كل ما يكون من عوامل الضعف أو التخاذل، مهما كان شأن العدة التي تحملها الفئة القليلة المؤمنة، والقوة الظاهرة المستكبرة التي تتمتع بها الفئة الكثيرة الفاجرة؛ ذلك أن معركة الفرقان تبدو وهي أبرز صورة من صور الحركية بعد الهجرة، فلقد حملت التاريخ بكلتا يديها، وكتبت على صفحاته بدماء المسلمين حقائق ناصعة لا تحتمل اللبس أو الغموض، إنها مشرقة إشراقة إيمان أصحابها، قوية قوة عزائمهم، ناصعة نصاعة جباههم التي لا تعنو إلا للحي القيوم، لقد كان ذلك وأوفر منه وأغلى، حتى غدت بدر وكأن مشارق الأرض ومغاربها طويت فكانت العدوتين الدنيا والقصوى، وكأن هذا الكوكب الذي نعيش عليه لملم أطرافه حتى كان أرض المعركة.

ومضى على سمع الزمن قول الرسول الكريم في شأن أولئك الذين ركضوا خيلهم على جنباتها، وأفسحوا بلمعان سيوفهم طريق النصر والتمكين لأجيال القرآن، وأضاؤوا بإخلاصهم ظلام القرون: [**لعل الله اطلع على أهل بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**].

ولقد تأيد بمعركة بدر أن الهجرة كانت العمل البنَّاء الذي وصل بالدعوة إلى ذلك المناخ الملائم لها في المدينة، بعد ثلاثة عشر عاماً من الصبر والمصابرة، والاحتمال القاهر في مكة؛ فرأيت الذين عاهدوا رسول الله في بيعة العقبة على أن يحموه مما يحمون منه نساءهم وأولادهم في حدود المدينة، قد خرجوا على ذلك، وتوجهوا إلى بدر حيث الابتلاء الأسود والصراع مع الفئة ذات الشوكة، وكانوا بعون الله قادرين ـ على فقر وقلة مؤنة ـ أن يُمرِّغوا أنف الباطل بالتراب، وأن يسلموا إلى الأجيال من بعدهم مفاتيح النصر والتمكين.

إن الفئة القليلة التي حملت العبء في معركة الفرقان أتعبت التاريخ في رصد غناها وعطائها وما كانت تحمل من خصائص التكوين وأهلية الصعود، إنها قليلة العدد والعدة ولكن هنا تكمن القوة التي هزت معالم الزمن.

لقد كانت أول ظاهرة في سلوك هؤلاء الرجال بعد إيمانهم وحبهم للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنهم تخلوا عن كل مبتغياتهم لما لله عز وجل.

فبعد أن كانت بغيتهم الطائفة غير ذات الشوكة حيث يحصلون على العير التي كان يتولاها أبو سفيان، أراد الله لهم غير ذلك، فخرجوا وهم على غاية الرضا ﴿**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾ فكانوا ـ بما تخلوا عن رغبتهم لما أراد الله جلت حكمته ـ جنود الحق في مواجهة الباطل وتمت كلمة الله.

وفي أمر (الأنفال) كانت بعض الرغبات في غير الذي نطقت به الآيات فيما بعد؛ لقد حصل شيء من الاختلاف على الأنفال حتى إذا جاءت الآيات تقرر أن الأنفال لله والرسول وما عليهم إلا الطاعة إن كانوا مؤمنين، رأيت الرضا والطمأنينة، وانقلب الجميع إلى متابعة الطريق كما يرضى الله ويرضى رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾.

ولا تسل عن صنيع الأنصار الذي ألمحنا إليه من قبل وكيف تخلَّوا عن حدود العقد الذي يلزمهم بحماية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ داخل المدينة فقط، وتجاوزوه بإيمانهم إلى ما وراء وراء، فموثق الإيمان واليقين، ومحبة الله ورسوله، والوعي الصادق لحقيقة الطريق التي سلكوها، أجدر بالعناية وأولى بالاتباع، والإيمان إذا وقر في القلب، وفاض على الجوارح، يصنع الكثير الكثير..

ولقد كان رسول الله حريصاً على أن يسمع منهم رأيهم عندما أزمع القتال وانصرف عن العير إلى النفير، وذلك قوله بعد أن خطب أبو بكر وعمر: [**كيف ترون**] فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، إيانا تريد، فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرنَّ معك، ولا نكونن كالذين قالوا لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له، فَصِلْ حبال من شئت،

واقطعْ حبال من شئت، وعادِ من شئت، وسالمْ من شئت، وخذْ من أموالنا ما شئت. فنزل القرآن على قول سبعد.

وهكذا ترى المحور في كل ما ذكرنا مرضاة الله ورسوله دون وقوف عند أمور تمليها المصلحة القريبة، أو الخوف الناتج من قياس القوى بعضها ببعض، فما يريده الله ورسوله هو المقدَّم وعليه المعوَّل. وأيُّ شيء من التقوى كهذا الذي كان من وقفة الفئة القليلة المؤمنة واستجابتها لنداء الحياة! وتقوى الله الخالصة المخلصة لها آثارها البعيدة في نصر الله وتأييده وتمكينه لعباده المؤمنين. ولقد نزل في أهل معركة الفرقان قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾. وأعطانا صنيع أهل بدر أن أولئك الذين يكونون قادرين على الأخذ، والتمثل الصحيح لمعاني الإيمان والفكر الواضح المستقيم، هم الذين يكونون قادرين على الالتزام الواعي والطاعة المشرقة والعطاء يوم يعز العطاء، ذلك أَخذٌ بحق وهذا عَطاءٌ بحق.

والآن: إذا كانت (بدر) محدودة الزمان والمكان من حيث وقوعها: فإنها واسعة الأمد عبر القرون من حيث مدلولها والدروس التي أملتها، فنحن اليوم قد لا نرى بدراً مطابقة لتلك التي زانت التاريخ قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، ولكن المطلوب أن نتحرك ضمن ذلك الإطار المبارك الذي لفَّ معركة بدر والبدريين، وإذا علمنا أن مفهومات الإسلام هي التي أثرت في تلك المعركة، وأن ترجمة الإيمان إلى تفانٍ في طاعة الرسول وطلب الشهادة في سبيل الله: إن علينا أن نبصر الأمر منً خلال هذه المفهومات مع الإفادة

من المعرفة الخيرة بالنسبة للأسلوب وسلامة التنفيذ، والله ناصرنا إن نحن نصرناه بإعداد العدة وسلامة القصد والتساوق مع سننه التي لا تتبدَّل!!

فالمعارك بين الهدى والضلال، وآباء جهل، ـ وما أكثرهم في الزوايا والخبايا ـ والهمهمة الضارية في مواجهة الإسلام: قائمة يعاني منها الإسلام شديد الهول، على تنوع الأسلحة والإفادة من كل معطيات الحضارة المادية الحديثة في محاربة تراث الأمة ودعوتها ولغتها، والعياذ بالله.

وإن واجب المؤمن حيال ذلك لا يحتاج إلى بيان، فأمر بدر لم يكن أمر اختلاف على متاع الدنيا ومنصبها، وإنما كان صورة من صور ذلك الصراع بين الحق والباطل، ظهرت فيه قدرة الحق على ثل عروش الباطل عندما يستنفد المؤمن الطاقة في الإعداد، وكيف أن الله تعالى يمدهم بنصره وتأييده. إن أهل بدر لم يبخلوا على المعركة بشيء، تركوا ما كانوا أرادوه، لما أراده الله لهم، وبذلوا كلَّ ما في طاقتهم، وبرزوا إلى المعركة وكل تصرفاتهم صورة عملية واقعية لإيمانهم، وحينما يكون في مقدور الأمة أن تقدم الصورة العملية الواقعية للإيمان: فحدِّث ولا حرج عما يكون من النتائج وحسن العواقب.

ولقد يكون انعكاس الأحداث التي تواجه الأمة أكثر إيقاظاً للهمم بتطبيق هذه الملامح التي كانت شعار أهل بدر. فـ(رؤوس) تلك الحقبة، ذلك الطاغوت المباشر يومذاك غير (آباء جهل) اليوم في العالم؛ أولئك يدافعون عن موروثات عفنة في ظل الخوف على زعامة ينفخ في عنقها الشيطان،

وهؤلاء يقصدون إلى الهدم والاستئصال ضمن مناهج ومخططات تفيد من كل حديث متجدد من معطيات وعلوم، الأمر الذي يدعو إلى مزيد من اليقظة، والتبتُّل في فهم مدلولات بدر ومواقف البدريين في مواجهة تنوع الأسلحة حسب التطور العلمي والحضاري.

ناهيك عما يضاف إليها من التمويه ووضع الأسماء والمصطلحات لغير مسمياتها؛ تذليلاً لقياد أولئك المغفلين الذي يلهيهم القشر عن اللباب، وتشغلهم الصورة المصنوعة عن الحقيقة المرعبة التي تختفي وراءها. والذي يريد أن يفيد من التاريخ ووقائعه الناطقة المعبرة: عليه يرى الأمور كما هي دون تمويه أو تلبيس. فتلامذة الشيطان في العالم الذين يفنون أعمارهم في خدمة الباطل، والإعداد لتمكينه وترسيخ أذاه في الأرض، يرى من الطبيعي أن يكونوا أعداءً للحق وأهله، وللكرامة وسلطانها؛ فليس من شأن أعداء الحق أن يكون منهم مهادنة لذلك الحق إلا بمقدار ما تكون المهادنة فرصة لتوثب جديد، وانقضاض لا يرقب في دعاة الخير وحراس الحقيقة إلاً ولا ذمة. هذا فضلاً عن أن يمدوا الخط المقابل بما يقوي دعائم الحق، أو يعطوا عن رضى وطيب خاطر ما به ترتفع راية الإيمان.

ويوم كان الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يواجه المشركين بالدعوة إلى الله وترك عبادة الأوثان، ونبذ التقليد الأعمى، والانصراف إلى طريق التوحيد والعمل الصالح المجدي، كان من أسلحتهم ـ مع الإيذاء والحرب الفاجرة والكيد الأسود المتمادي ـ دعوى أنهم هم عمار المسجد الحرام

بسقايتهم للحجيج وما يكون من العمارة المادية للبيت، فجاء الرد القرآني الحاسم يضع القانون الذي لا يصح للأمة أن تتخاذل عن قوة دلالته.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وهنا، وعند هذا المفصل من طبيعة هذه الدعوة، وتكوين العاملين في سبيلها، الأمر الذي يشعر بثقل العبء، والتململ الذي يحدثه ضعف الإنسان.. هنا.. لابد أن نذكر أن الله قادر على نصرة الحق بدون فئة قليلة أو كثيرة، مؤهلة أو غير مؤهلة، ولكنه الفضل الإلهي الذي لا ينتهي، والعطاء الرباني الذي يتقاصر دونه كل عطاء، أن يختارك للجُلَّى، ويبتليك أتصبر أم تتحوَّل، ويختارك لحراسة العقيدة التي رضيها للعالمين، نعمة يعجز عظماء الرجال عن شكرها، وأدنى درجات الشكر أن تدرك أبعادها، وتجهد صادقاً في أداء حق الله الذي أكرمك بها، طاعةً والتزاماً، وتخلياً عما تريده، لما أراده لك بحكمته وعمله، صنيع أهل بدر الذين أسلموا وجوههم لله وخاضوا امتحاناً رهيباً أرعبت ثمراته الشرك وأهله من أدنى الجزيرة إلى أقصاها، وأبرز المستضعفين وجهاً مشرقاً، وساعداً قوياً في إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإرادة أصيلة تُملي ولا تستملي في تاريخ الإنسانية الطويل

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

والله لا يدع عباده المستضعفين دون نصر وتأييد، ولكن أسباب النصر يدركها المؤمنون الصادقون، ولا يدركها المنافقون المنهزمون، وتلك سنة إلهية من سنن الله الماضية لا تقتصر على عصر دون عصر، ولا تقف عند فئة من المؤمنين دون فئة أخرى. فوراء تدبيرنا نحن البشر الضعفاء: تدبير الله الذي لا تنفد كلماته ولا تَغيضُ النفقةُ خزائنه.

فلقد كان من عنايته وتدبيره سبحانه: أن سهّل لهم أمر الخروج بقناعة نفسية تقوم على قياس ما هم فيه على ما كان بشأن الهجرة ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ .

وها هو سبحانه يمدُّ أهل بدر بالملائكة يقاتلون معهم، ويغشيهم النعاس أمنةً منه، وينزل عليهم من السماء ماء ليطهرهم. ويذهب عنهم رجز الشيطان، ويربط على قلوبهم ويثبت أقدامهم ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ

﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾. فلا والله ما يجوز أن يحجزنا عن هذه السنة الإلهية حاجز، ولا يقف دون الإيمان والتصديق بها عائق، كيما تكون مصباحاً من مصابيح الهدى على طريقنا الطويل.

ففي مواجهة بين من يشاقون الله ورسوله وبين الفئة القليلة المؤمنة العاملة على أن تكون كلمة الله هي العليا: يكون من الله القادر كلُّ تأييد وتثبيت لحملة راية الإيمان كيما تكون العاقبة لهم، والنصر المؤزر بجانبهم. أما دائرة السَّوء فعلى أولئك الذين همهم مشاقة الله ورسوله، والسعي في الأرض فساداً. ولكن ذلك مرهون باستقامة المؤمنين على الطريق، وبذل كل ما في وسعهم أن يبذلوه، واستسلامهم الصادق لإرادة الله، واطمئنانهم لما يرسم لهم، وإخلاصهم العمل في سبيله. وتوكلهم حق التوكل عليه؛ فهو حسبهم ونعم الوكيل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾. ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

والمؤمن يستعلي بيقظته وإيمانه على إرجاف المنافقين، وتخذيلهم الكالح للعصبة المؤمنة عن متابعة السير؛ فالمنافقون قلوبهم في أَكِنَّةٍ عن دعوة الحق

ولا قِبَل لهم - كما أشرنا من قبل - بإدراك أسباب النصر وأسباب الهزيمة، ولكن بصيرة المؤمن بتوكله الصادق على الله لهم بالمرصاد ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ولئن كانت سنة الله ماضية في تثبيت الفئة المؤمنة ونصرها، ما كان منها استقامة على الطريق، بكل أبعادها ومدلولاتها: إن من سنته الماضية أيضاً أن هذه الفئة إذا غفلت عن الله، واستجابت لدواعٍ لا تثقل في ميزان الإسلام أن يؤدبها ليعيدها إلى الحظيرة، ويسلمها إلى طريق النصر من جديد؛ ففي شأن ما كان يوم (أحد) نزل قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

ألا إن معركة (بدر) أوسع وأشمل من أن يحدَّ مدلولاتها زمان أو مكان، وسنن الله الماضية التي برزت من وراء الأحداث يومذاك، وتسجيل الوقائع قرآناً يتلى، وسيرة عطرة تزين جبين التاريخ، إن هذا جميعاً - وغيره كثير - أمانة في عنق هذه الأمة، ونبراس من الواجب أن يحتذى، ومثل من أروع الأمثلة يجب أن ينسج على منواله، فالإطار واحد ولكن تختلف الجزئيات

من داخله باختلاف الظروف ووسائل المعرفة وما تقدم الحضارة من جديد. وكلما طاف بالفئة المؤمنة طائف من الرهبة أو اليأس، أو أثقلتها الأيام بالرهبة والخوف من طول الطريق.. كلما وقع ذلك أو شبهه أو خدينه، تلفتت هذه الفئة الصابرة المحتسبة لتراجع رصيدها في مقدار إدراكها للراية التي يتحرك تحتها المؤمن، والمفهومات التي أثرت كل التأثير في بدر وسلوك البدريين، تلفتت إلى سنن الله الماضية التي لا تتخلف، وعطائه الذي لا ينفد، ومدده الذي لا ينقضي، فاعترت القلب هزة إيمانية تقرب المسافة بينها وبين رجال بدر، وتقتحم العقبات التي تحول بينها وبين أن ينالها إكرام الله وفضله لو كتب لأبنائها أن يكونوا جنوداً في إحقاق حق وإبطال باطل.

ألا وإن محتوى بدر: برجالها، بسلاحها، بأرضها، بمثار النقع الذي انعقد فوق رؤوس أبطالها، بالتدبير الإلهي المحكم وراء النفوس والهواجس والرغبات، كل ذلك حجة على هذه الأمة من جهة، وواحة تفيء إلى ظلها من جهة أخرى، والمؤمن الصادق موصول القلب بالله، يكاد بعد أربع مئة وألف عام يحسُّ كل حركة على أرض معركة بدر، ويسمع كل تكبيرة رددتها حناجر القوم يومذاك، ويبصر بعينه ملائكة الله تضرب الكافرين فوق الأعناق، وتضرب منهم كل بنان.

والمؤمن في قراءته لآيات الأنفال وآل عمران ونظره في الوقائع، يحسُّ إحساساً صادقاً أن القافلة التي تحركت في ضوء تلك الآيات، واستطاعت أن تعي مدلولاتها، وكانت الرائدة التي بدت في حركتها صورة عملية

واقعية للإيمان. . إن هذه القافلة تدعوه إلى متاعبة الطريق ليسعد بأن يكون من رجالها، متخطياً كل ما يكون من ركام وحطام، واعياً كل الوعي أن مدلول المعركة والآيات التي نزلت بشأنها لا يمكن أن تنفعل به النفوس الميتة، ولا القلوب التي رانت عليها الغفلة، وأطبق عليها حب الدنيا وكراهية الموت، ولعل ذلك كله قليل من كثير مما يوحي به قول الله تعالى في فواتح سورة الأنفال: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾. ومن أسرار هذا الوجل الكريم، والتوكل الصادق: ما كان من تلك الهيبة التي أعطاها الله لرجال تلك القافلة، والانهيار وزعزعة القلوب عند أعدائها المدججين بالسلاح المتخمين بالطعام والشراب. قال عمير بن وهب الجمحي - وقد أرسلته قريش يستطلع معسكر المسلمين -: «ما وجدت شيئاً، ولكني رأيت البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك، فرَوا رأيكم».

اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت. اللهم اربط على قلوب أحبائك المؤمنين، وثبت أقدامهم على الطريق، واجعل بينهم وبين القافلة الرائدة نسباً موصولاً، يؤهلهم لنصرك وتأييدك كما أيدت أهل بدر في مواجهتهم من شاقوا الله ورسوله وخرجوا بطراً ورئاء الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

بين الغفلة والانتفاع (*)

ليس في أبواب العبرة والذكرى لدى أمة من أمم الأرض أحفل بدواعي الانتفاع والعظة، من هذه الفصول الدامية التي تمر بها أمتنا، والمحن التي تلفّ وجودها في هذه الحقبة من التاريخ.

فأنّى تلفَّتَّ فاجأتك الكوارث، وأينما سرت صرخت في وجهك نكبة تنشب أظفارها في قطر من أقطار الإسلام.

فلا تكاد تحمل نفسك على جناح من المرارة والأسى إلى أرض النبوات وقلبك يدمى على الأقصى الذي بارك الله حوله، وجعله ثالث الحُرم في أرضه، وترى ما تعبث بأرجائه صبية يهود من ارتكاب لأبشع ما يتناقض مع أوليات الدين والأخلاق، ثم ما يجوسون خلال الديار، ويقترفون من تغيير المعالم، وإزهاق الأرواح، وترويع الآمنين، محاولين أن يمكنوا لأنفسهم على حساب الحق وأهله، مستعينين بمن يحركون بأصابعهم قوى العالم وأذنابهم لإضفاء صبغة الشرعية والاستحقاق على كل ما يصنعون ويرتكبون..

نعم لا تكاد تحمل نفسك كذلك ويؤذي قلبك وشعورك كل هذا ـ وبعضه يكفي ـ حتى يصرخ في أعماقك صوت فتنة الانفصال العمياء التي دبرها الأعداء لباكستان كيما تتحقق لهم أغراضهم القريبة والبعيدة، وما أكثر ما

(*) مجلة حضارة الإسلام: الأعداد (الثامن، التاسع، العاشر)، السنة الحادية عشرة، شوال وذو القعدة وذو الحجة ١٣٩٠هـ. ١٩٧٠م ـ ١٩٧١.

تلبس التماسيح جلود الضأن، وما أكثر ما يكون الرثاء والشفقة عنوان الخبث الثعلبي الذي لا يرقب إلاً ولا ذمة في واحد من عباد الله المؤمنين. ولعمري إن التباكي على المواطن الباكستاني الشرقي اليوم يذكرنا بنزاهة بريطانيا وأعوانها يوم كانت تسلم السكين للجزار وتهيِّئ الضحية للذبح، ثم تعلن براءتها من الذبح والذابحين والكيد والكائدين، وما أيام خروجها من فلسطين، وأيام خروجها من الهند حيث غرست بذور الداء العضال في كل منهما ـ مع الاختلاف في اللون ـ عنا ببعيد. نقول ذلك لأن مثل هذه الظواهر التي تشير إلى مكامن الفتنة لها مدلولها المخيف، فإذا لم تستأصل في مهدها، ويقضى على كل دواعيها والمستنقعات التي تولدها، كانت الكارثة التي لا ينفع معها الندب والنواح، كالذي حصل في أرضنا القريبة الحبيبة المحتلة اليوم.

وإذا رحت ببصرك وبصيرتك نحو أرتيريا، رأيت ما يذوب له القلب؛ من انتهاك حرمة الإنسان، وذبح الحرية باسم الحق والدين، وأبصرت كل المعاني الخيرة يدوسها الطاغية العتلُّ دونما سؤال ولا حساب، ينفخ في جرانه كلَّ يوم ـ إلى جانب الحقد على الإسلام وأهله ـ ما يقدمه الاستعمار والمستعمرون من السلاح والعتاد، وما تضفيه بعض المحافل الدولية على مقامه السامي!! من المراتب والرتب والمسؤوليات تلك العناوين الخاسرة التي تتحول إلى سم ناقع يستأصل إخوتنا وأبناءنا على ثرى الأرض التي احتضنت أول هجرة إسلامية من مكة إلى الحبشة، عندما خرج الرجال والنساء فراراً بدينهم وحفاظاً على العقيدة من الفتنة وإرادة التحويل.

وهكذا وصلت الأمة إلى مدلول قول شاعرنا:

وصرت إذا أصابتني سـهام تكسرت النصال على النصال

وكذلك هنا وهناك وهنالك؛ فاليهود يغتصبون، وينتهكون، ويفعلون ما يشيب له الوليد، إن كان قد بقي وليد يشيب، ثم يتباكون، وكأنهم أصحاب الحق الأصيل، لا لشيء إلا لأن أعداءهم أهل الأرض وأبناء الديار، يرفعون أصواتهم، ويجأرون؛ والمحافل الدولية لا تريد لنا أن نُقلق راحة صبية يهود؛ فاليهود فوق القوانين، وفوق كل الاعتبارات الإنسانية، ولامانع في نظر حلفائهم ـ وما أكثر الحلفاء من الأموات والأحياء ـ أن يُعطَوْا ما يشاؤون، وأن يقدم لهم ذلولاً سائغاً كل ما يصفو لأطماعهم وتسوِّله نفوسهم التي جبلت على المكر والخبث، وعبادة الربا والمال؛ والمسوِّغ الوحيد لذلك أنهم يريدون ذلك؛ فإرادتهم شريعة وقانون!!

وإذا كان الأمر كذلك؛ فليعطَوا كل ما تمليه تلك الإرادة الباغية؛ فالذي تبغيه يهود حق، وكل ما يصنعونه من أول مؤتمر لصهيون وقبل سقوط الخلافة العثمانية، إنما أخذ شرعيته وسلامة القصد فيه من كونه مراداً لهم، وحسب السياسي والقانوني، والمؤرخ في ذلك دليلاً على صحة كل ما جنت أيديهم منذ ابتليت بهم البشرية حتى اليوم، وما حديث القرآن الكريم والسيرة النبوية عنهم بخاف على ذي لب تتحرك بين جوانحه بقايا من شعلة الإيمان، ويهزه إلى الإعداد الواعي والانقضاض الصاعق استعلاء على الحطام الزائف، من خوف أو طمع ذاكراً قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

﴿الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾. ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾. والمؤمن الحق الذي تهب على قلبه ريح الجنة في ميدان القتال ينظر إلى بدء الآية وختامها نظرة الوعي والتدبر؛ فقد بدئت بـ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وختمت بقول القادر القاهر: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾.

وأعداء باكستان، وأعداء ما يدين به أكثرية أهلها الساحقة حريصون ـ ويا للسخرية ـ على دماء المسلمين أن تراق.. إنهم حريصون عليها حرص عبدالله بن سبأ رأس الفتنة في تاريخ الإسلام، على دعوة الإسلام وأهله وذويه. وبعد ذلك.. يريدون منك أن تصدق ما يقال، وأن تغلق عقلك، وتستبدل البله بوعيك وفهمك، وأن تسدل الستار على تاريخ أسود يكذب كل هذه الدعاوى الفارغة.

ولست أدري كيف يكون ذلك، وعندك ألف دليل ودليل على أن أعداء هذه الأمة على اختلاف أشكالهم، لا يريدون بها إلا التمزق والضعف، من طريق التجزئة العملية، والبلبة العامة الشاملة؛ الأمر الذي إن وقع ـ لا سمح الله ـ كان له من الآثار السيئة ما يمكن من ابتلاع الأرض وأصحابها، والطغيان على الحق وأهله، والتعفية على أهم القضايا المعلقة والتي تتصل اتصالاً حيوياً بكيان الأمة.

وفي أرتيريا: المطالبون بتحرير أرضهم المغتصبة هم أعداء الأمن والقانون، في نظر الحاكم المطلق في هذا القرن الذي يدعونه القرن

العشرين!! وكل جريرتهم التي يؤخذون بها أنهم يقولون للغاصب: اخرج من أرضنا، وأقلع عن استعباد المواطنين من أهلها. فيكون جزاؤهم التنكيل والتعذيب والتشريد، وسياط يلهب ظهور الأطفال والنساء والعجزة بيد زبانية حامي حمى الدين بزعمه المكين!!!

وكم كوفئ على ذلك من بعض الناس بالمزيد من التكريم، ولكن الطغاة لا يؤمنون بيوم الحساب، ولسوف يفجؤك ما ينطق به قول من يمقت الظلم والظالمين: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

أمام ذلك كله، ومثله كثير، ومعه على الخط الموازي ذلك الانحسار الرهيب لشرعة الله في الأرض، وجفاء بلاد الإسلام لحكم الإسلام، وتخلي كثير من العرب عن موقع الريادة والقيادة التي أسلمهم الله زمامها برسالة الإسلام... أمام ذلك كله يقف المؤمن الواعي الذي عرف حق الله وحق أمته، يقف حائراً مشدوهاً، تأكل قلبه المصيبة، وتكتم أنفاسه الحوادث، وترهق وجوده ليالي الأسى صباح مساء. والامتحان القاسي كائن على ميدان الصراع بين وعد الله للجماعة المؤمنة بالنصر - إن هي استقامت على الطريقة، وجاهدت في الله حق جهاده - وبين ما يرى من التقهقر والانهزام بأنواعه - وأشده الانهزام النفسي - والانتصارات التي يحققها أعداء الأمة هنا وهناك.

والظافر الذي ينتصر في الحلبة: هو الذي يثق بوعد الله تمام الوثوق، ويضع نصب عينيه طريق الجماعة التي حملت عبء الدعوة في أول

الطريق، فيعمل على أن تنصبَّ الجهود الفردية في المنهج المتكامل لتنال الجماعة مرضاة الله تعالى لأن يد الله على الجماعة، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

وهو دائماً ينظر ببصيرة المؤمن ونفاذ الموقن المصدِّق لتدارك النقص وسد الثغرات، والقضاء على عوامل التخلف والانحدار؛ فنحن - في الواقع - لا نعاني من التخلف الحضاري فحسب، ولكننا نعاني من التخلف في فهم السبق الحضاري ومدلوله، وفي حسن اختيار ما نأخذ وما ندع من معطيات الحضارة الحديثة اليوم؛ فلكم غُزينا في عقر دارنا بأسوأ ما حملته هذه الحضارة، في الوقت الذي نبدو وكأننا نحمل بين ظهرانينا المناعة من الإفادة مما فيها من العلم والمنهج، وكثير من وسائل المعرفة التي يمكن معها تحقيق قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

ولا تسل - من بعد - عن التخلف في فهم القواعد التي هي مرتكزات الحركة بالنسبة للأمة، والمبادئ التي يفترض أن تكون هي - ولا شيء سواها - ضابط التصرفات ومقياس التصوُّر والسلوك على صعيد الفرد والجماعة وما وراء وراء...

وهنا يأتي دور الريادة - وقد أشرنا إليه من قريب - فلم يعد خافياً على أحد أن الأمة إذا كانت جادة في الإفادة من مرتكزات القوة في كتاب ربها، وسيرة نبيها - عليه الصلاة والسلام - ومن سار على هديه عبر تاريخنا الطويل، والمعالم التي خطها الأبطال والمصلحون في بناء التاريخ.. لابد أن تأخذ

ذلك بقوة وصدق واعتقاد جازم لا يقبل التلفت ولا التخلخل: أنه رأس الدواء ومفتاح التحول من الضعف إلى القوة، ومن الهزيمة المنكرة إلى النصر المبين. وهذا كله وعنوانه التحول عن المنعطف الذي أودى بنا إلى الهلكة: لا مندوحة عنه للطليعة التي تتحمل العبء، وتأخذ على عاتقها ريادة الطريق، ريادة تتسم - مع منهجيتها - بالأمانة، والالتزام الواعي لكل ما تحدده معالم الطريق التي رسمتها يد النبوة الكريمة الحانية، بعيداً عن مهاوي الأنا والشهوة، ومزالق الطمع، وخوف العقبات التي تصرخ في وجوه السالكين.

يقول لك القائلون: درس المسلمون السيرة ولم يتغير من حالهم شيء، وما تزال أمم الأرض تداعى عليهم أسواء ما يكون التداعي، وتؤذيهم في دينهم ودنياهم أشنع ما يكون الإيذاء..

وجوابنا على ذلك: أن السيرة تعطيك إذا أعددت نفسك للأخذ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ السيرة أمانة ومسؤولية والتزام؛ لأنها أسوة وقدوة وريادة. الكثير منا يقرأ الكلمات ويهرب من المدلول، والقليل منا من يبصر السطور ولا يتعامى عن القوة الدافعة التي أملت على التاريخ تلك الوقائع النورانية المتعالية التي تشير إليها هذه السطور. فالإيمان والصبر، والطاعة لله ولرسوله، والانقياد الصادق الواعي، وحب الموت في سبيل الله، والتعالي على حطام الدنيا مع الأخذ بالأسباب: كل هذا جعل من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - أناساً يتمثَّلون دعوة الرسول - عليه الصلاة والسلام - حتى كأن كل واحد منهم صورة عنه -

صلوات الله وسلامه عليه ـ وذلك قول الله تعالى فيهم: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، كل ذلك لأنهم كانوا وقّافين عند قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

من هنا لم يكن بدعاً من القول أن يقول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ داعياً إلى طريقته وطريقة خلفائه من بعده: [**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من المهديين وعضوا عليها بالنواجز**].

والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾. ويرحم الله القائل: ما جالس القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقص، اقرؤا إن شئتم ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾. وهل سيرة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسيرة الراشدين ومن اهتدى بهديهم على مدى التاريخ، إلا الترجمان الحركيَّ الفاعل لما جاء به القرآن الكريم ودعا إليه. وصدق من قال في شأن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ «كان عمر قرآناً ناطقاً».

إنه لَبَون شاسع بين ما عليه الكثير منا اليوم من انحراف جاهلي يريدون من القرآن والسيرة مسوِّغات لوجوده وسلطانه، وبين أناس رسموا معالم التاريخ بإيمانهم وإخلاصهم، وحرسوا الإسلام بدمائهم وتضحياتهم، والخطوة الأولى على طريقهم الصاعدة الشائكة أنهم تقدموا للقرآن بنفوس

مفتوحة وصدور نقية تريد منه الأمر ليطيعوا، والمنهج ليلزموا، وكان السباق فيما بينهم، أيهم أقدر على الالتزام أمانة ووعياً ومتابعة إلى آخر الطريق. نحن نريد من الإسلام مسوغاً لانحرافنا، وإلا تحوَّلنا وحوَّلنا الشراع. أما أولئك: فكانت حياتهم استجابة طبيعية حركية لما دعاهم إليه الإسلام على لسان محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو صلوات الله عليه كان نعم القدوة ونعم الأسوة في نفسه وبيته وأهله، وسيبقى الخط الذي رسمه للإنسانية هو المثابة التي لابد أن تعود إليها ولو بعد حين.

وإذن: فلابد من النقلة الصحيحة المعقولة إلى حيث نقف على مستوى الإدراك والالتزام، ونبصر مواقع أقدامنا، وأي منهج نحتكم إليه.

ولقد تبدو هذه النقلة صعبة المنال، بعيدة المأخذ، وهذا صحيح إلى حد بعيد، يوحي بذلك ما تتقلب فيه الأمة من النظرة التي تحمل كلَّ خصائص السطحية وطلب العافية حين تريد من القرآن وسيرة الرسول مسوغاً لانحرافها وجاهليتها. ولكن صعوبة الطريق لا تعني ـ في نظر العقلاء ـ الاستغناء عن الغاية، والتولي شطر الخنوع والضياع، خصوصاً إذا وضعنا في الحسبان أن هذه النقلة على مشقتها وصعوبتها على كثير من النفوس، هي نقلة إلى ساحة الحياة الحرة الكريمة، الغنية بالعطاء، الغامرة بسعادة الدارين. والذي ندعو إليه من وراء هذه النقلة أمر يحمل كل خصائص القوة والخلود، فضلاً عن عناية الله الغامرة إن نحن صدقنا العزيمة.

ولقد أثبتت تجارب هذه الأمة في الماضي والحاضر، أن المنهج الرباني الذي صنع من أولئك الذين تربوا في ظل الجاهلية الأولى من قبل، حراساً لعقيدة التوحيد، وذادة عن دعوة الإسلام، حاملين للوائها، بناةً لصرحها في العالمين، هو القادر دائماً على أن يصنع الرجال من جديد، ويدفع بهم إلى حيث تمكن هذه النقلة التي تبدو بعيدة مستعصية. وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه ـ حيث يقول: [**الناس معادن؛ فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**]. المهم أن تتوافر الدواعي التي تجعل الإيمان يعمل عمله، وأن يكون لفقرات المنهج الرباني مكانها الطبيعي في الإعداد والتكوين، ومن أبرز هذه الفقرات التمحيص الذي يكشف الحقائق ويبني الرجال، ولا تسل بعد هذا عن النتائج التي لا تعود على الأمة إلا بالخير والمنعة، وأن تأخذ موقعها الطبيعي القيادي في العالمين.

وفي ظل هذه الحقيقة تتكشف الكوارث والنكبات عن دروس هي غاية في الدفع وإثارة الكوامن التي لابد أن تثور، وتقف الأمة على اليابسة حيث تنتفع من الأحداث دون أن تهلكها ظلمة الغفلة والبعد عن العظة والاعتِبار، ثم لا تدع أن تجعل من الإيمان وقود الجهاد كيما تعلو كلمة الله، ويطرد الغاصب إلى غير رجعة إن شاء الله.

ولعل من أبرز الأدلة على هذا الذي نقول، ما ترى من حرص أعدائنا على إحداث الهوة السحيقة بين الأمة وبين معالمها التي جاء بها محمد بن عبدالله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والعمل على أن تقوم الجفوة القاسية

الرهيبة بين الجيل وبين من هم أهل القدوة والأسوة قديماً وحديثاً ممن اقتدوا بالهدي النبوي الكريم. وبذلك تتحول الأمة عن مواقع القوة وينصرف الجيل الذي واجه الداء، وارتطم بالكارثة، إلى أن يتخذ للطريق معالم غير هاتيك التي هي منابع قوته، وللأسوة زبانية يجرونه إلى أسوأ عاقبة وشر منقلب في وجوده وفكره وتصوره.

والنتيجة الطبيعية لهذا أن يصل الأعداء إلى الهدف الذي ترسم له المخططات وتنفق في سبيله الأموال والكفاءات والطاقات، وهو أن تظل الأمة في منأى عن اليقظة والقوة والأيد، وأن تكون مسارب فكرها، وفلسفة ماضيها وحاضرها بحيث تظل على اتجاه الخط البياني النازل، والعياذ بالله.

ولسنا بسبيل أن نكرر ما قلناه في مستهلِّ هذا الكلام، ولكن عدم الانتفاع بالأحداث التي تؤرق الرجال وتقض مضاجع المخلصين شر من الأحداث نفسها.

والغفلة عن العظة والانتفاع سلاح ماض يفيد منه العدو دون أن يكلفه شيئاً من العناء، وكثيراً ما تولد هذه الغفلة نوعاً من التخاذل القاتل واليأس الذي قد لا يلتقي مع الإيمان.

وإذا كان الأمر كذلك؛ فلا بد من هذه النقلة الكريمة المباركة وهي نقلة تبدأ على صعيد الشعور، ثم تنعكس بصدق وحرارة على صعيد الواقع والسلوك. والله مع هذه الأمة بقوته وأيده ونصره ما وجهت وجهها شطر

الذي دعاها إليه في محكم كتابه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ .

وفي ظل هذا القانون الإلهي الذي تمليه هذه الآيات ليس من مكرور القول أن نذكّر بأن الحركة على صعيد تلك النقلة ليست حركة في فراغ، فإذا جدَّ الجدُّ وسلمت الغايات، ومُكِّن للتربية الإيمانية أن تقول كلمتها: رأيت الأمة تغترف من ينبوع غمر فيه كل الصفاء والنقاء، وكل خصائص الحياة والاستمرار؛ عقيدة، وشريعة، وسلوكاً، ونماذج بطولة إيمانية، وعمل جاد مثمر، وإخلاص لله في كل حال تلك النماذج التي تشكل أعلى القمم وأكرمها في تاريخ البشرية الطويل ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ .

وإذا هي جددت العهد مع هذا الينبوع الأصيل في حياتها، وسلكت سبيلها على هداه، انقطع ما بينها وبين السطحية والتأرجح من سبب، وعوفيت من خطل الرأي ومهازل الترقيع، ومساوئ الارتجال، وسلمت لها وحدتها بعيداً عن التنازع الذي يذهب القوة ويأتي بالفشل الذريع، فضلاً عما يعطي للعدو الماكر من فرص التآمر، ونقض عرى الأخوة والتعاون المثمر بين الأقربين.

أما الذين تختارهم عناية الله ليكونوا طليعة الأمة وروادها على هذه الطريق؛ فعليهم أن يؤدوا حق الله فيما ائتمنهم عليه وأكرمهم به من ذلك

الثغر الذي أقامهم على حراسته. وحق الله كائن في حسن الصلة به، واليقظة لكل صغيرة كبيرة من دواعي النفس والهوى والشيطان، وأن لا تنسيهم قسوة المعركة الغاية التي من أجلها حمي الوطيس، وأن لا يذهلهم ثقل العبء عن معتقدهم أن الله ناظر كيف يعملون، وأنه يعلم السر وأخفى، وأنهم محاسبون على النقير والقطمير، ومن نوقش الحساب عُذِّب، وأن يخاف كلٌ على نفسه وساوس الشيطان وزخرف الدنيا، لأن مرضاة الله أحق أن تكون الهدف والغاية ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

إنه عهد الله ورسوله في المنشط والمكره، وإنها ذمة الإسلام التي من خفرها فقد ضل سواء السبيل.

ألا وإن القوارع التي تدق الأبواب على صعيد الفكر والأرض صباح مساء: هي النذير الذي اشتد ظلامه بين النذر، ولكل نبأ مستقر، وما الله بغافل عما تعملون.

ألا وإنه لن يستطيع متابعة الطريق إلا من غمرت قلبه التقوى، وعمل لمرضاة الله، وكان على حساب دائم لنفسه، فلا التشاؤم يقعده، ولا المغريات تلهيه، فالأمانة ثقيلة، والعاجلة لا تغني عن الآجلة، فإذا حزب الأمر واشتد الكرب رأيته وقد صدق في عمله وعاقبته قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾. والحمد لله رب العالمين.

سَنُريهم آياتنا في الآفَاق (*)

دائماً . . وعلى مر تاريخنا الطويل، بدءاً من اللحظة المباركة التي استمع فيها الزمان إلى النداء القرآني: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ووقوفاً عند أعتاب تلك القمم من المعرفة والبذل غير المحدود في سبيل الله . . وحتى يومنا هذا، يلمح الناقد البصير الدرس الخالد الذي درج في ظل الحق الذي نزل به الكتاب، وبعث بدعوته محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ذلك الدرس هو إيضاح الحقيقة التي ينادي بها دعاتها، والإعداد الدائم للعطاء في سبيل هذه الحقيقة عملاً وتقوى لله عز وجل؛ كيما تكون الاستجابة صحيحة لدعوة العطاء، وكيما تتحول الكلمات إلى واقع يسعد البلاد والعباد.

فهما نقطتان متلازمتان، في ترابط حركي لا ينفصم، وخطان لا يفرق بينهما إلا جهل جهول، أو تقاعس كسول.

وإنك واجد في القرآن الكريم وسيرة المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ صورة ذلك على أوضح شكل، وأكمل بناء؛ فالوحي يتنزل على الرسول خلال ثلاثة وعشرين عاماً، وهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يدعو ويبلغ الوحي، ويبين مضموناته ويعلم ويربي ويزكي من جهة، ويسلك بنفسه وبأصحابه سبيل الإعداد والجهاد على ساحة المعرفة، والتطبيق من جهة أخرى.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الأول والثاني، السنة الثانية عشرة، ربيع الأول ١٣٩١هـ. أيار وحزيران ١٩٧١م.

وعبثاً تحاول أن تجد في حِقب الوعي الإسلامي الصحيح أيَّ انفصام بين تلكما النقطتين؛ لأن سيرة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ التي كانت مخبر الإعداد الصحيح لصحابته ورجال دعوته، لم تكن سيرة فيلسوف يصوغ نظريات تذروها على جدار الزمن الرياح، وجدت طريقها إلى أن تتحول إلى واقع يتحرك أو لم تجد؛ ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان دائماً المثل الأعلى في نفسه وفي بيته من ناحية السلوك، ثم من ناحية صوغ الواقع الذي كانت تعيشه الأمة إلى أنموذج من الحياة تحكمه المناهج التي رسمها الوحي للعالمين، وكانت أداة التنفيذ بالطبع تلك الجامعة المؤمنة التي أعدّها الإعداد القرآني الذي جعلها على مستوى المسؤولية والقدرة على التنفيذ في مجتمع كان مثقلاً بالخرافة، والتعاظم بالآباء والأجداد، والموروثات التي أحلَّت التقليد الأعمى محلّ العقل النير والفكر المستقيم، حتى بدت الحقيقة السمحة قبل البعثة وكأنها أمرٌ لا قوام له في مقابل الوثنية الضالة والجهالة العمياء.

وكان من فضل الله على هذه الأمة أن القرآن كان لا يني يؤكد تلك الحقيقة التي قام على أسسها البناء الجديد، وعلى هديه سارت المناهج والنظم؛ فتراه يتحدث عن العقيدة بجميع شُعَبها وفروعها، ويحارب الوثنية بشتى أشكالها وصورها، ويرسخ أمر الإيمان بالغيب، ويوسع من ساحة الإيمان حتى تشمل أموره كل مرتكزات الأخلاق والسلوك، ويعرض لأحوال الأمم الغابرة مؤكداً موضحاً مواطن العظة والاعتبار، خصوصاً فيما

له علاقة بدعوات الأنبياء إلى أقوامهم، وما كان من مد وجزر في هذه الموضوعات الأساسية في حياتهم.

وبعد ذلك: تراه يدخل مع الجماعة المؤمنة إلى قلب المعارك التي خاضتها في سبيل الله، تأييداً للحق الذي دعاها إليه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ. فما كان صواباً حمده لهم، وما كان غير ذلك قوَّمه وشدهم إلى حيث لا يتكرر الخطأ مرة أخرى؛ مما باعد بينهم وبين أن يكونوا نسخة كتاب صامتة لا تتحرك، ولكن ترجمان حي صادق لحركة الدعوة في تجليتها للأسس التي تقوم عليها، وإعادة بناء الفرد على النهج الذي يؤهله لحمل الأمانة بوعي وإخلاص، وعزيمة مؤمنة صادقة، وهمة عالية لا تعرف ـ بعون الله ـ الكلال.

والذي يستوقف العاقل المتدبر، ويذكِّر بأن الصراع بين الحق والباطل لابد له دائماً من العدَّة المستطاعة: أن القرآن كان بجانب إيضاح خصائص الدعوة ومعالمها يُعنى ببيان ما يكون عند الآخرين من أسلحة المواجهة لهذه الدعوة سواء على صعيد الجدل والمماراة، أو على صعيد الحرب والنزال. والناظر في آي الكتاب يجد مصداق ذلك جلياً يدعمه الكثير الكثير من الأمثلة والشواهد.

وانظر في حديث القرآن عن أنصار وأعداء المرسلين الأولين وما واجه كل قوم به رسولهم، وعن الجاهلية والجاهلين، وعن أهل الكتاب من بني إسرائيل خصوصاً ما كان من يهود في الجانب الفكري، ثم الحرب الظاهرة والباطنة في التآمر والكيد والاحتيال، وعن فرعون بخاصة وما كان منه مع سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ وكيف كانت تقابل الحجة الساطعة بالعسف والاضطهاد.

ومع الإجمال الذي يطبع طريقة القرآن ـ في الغالب ـ ترى أنه لا يدع أمراً تفيد منه هذه الأمة في دعوتها وأداء رسالتها إلا ذكره.

وهذا دليل واضح على أن من العبث أن يُدَّعى خوض معركة تحت راية الإسلام، لا يملك أصحابها سلاح المواجهة فيها، فضلاً عن أن يكونوا على معرفة بطبيعة المعركة، وعناصر السلاح الذي يستخدمه العدو في سبيل ذلك. وليس بخاف على ذي بصيرة ما تدل عليه ظواهر حرب الإسلام ـ على النطاق العالمي ـ من أن هنالك مسحاً لأوضاع دعوة الإسلام على مستوى الأمكنة والأشخاص والأنظمة والأفكار، وأن العدو يستخدم أسلحته الظاهرة والخفية، وأن من تلك الأسلحة ما يكون من غفلتنا نحن عن الواقع، وعن الإفادة من الجزئيات وربطها بالكليات ناسين أو متناسين التوجيه القرآني في أعقاب انتصار المسلمين على اليهود في بعض المعارك وبيان أن اليهود تسببوا هم أنفسهم بما أصابهم ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾. ولقد أدى بنا عدم الاعتبار ـ على ما يبدو ـ إلى أن تنقلب الآية، فنكون نحن في الموقع الذي نحن فيه اليوم، واليهود يتراقصون شامتين، ويكيدون منتصرين طامعين.

ومما يجب أن يكون المسلم على ذكر منه: أن كلَّ الذي تحدثنا عنه ـ وهو جانب من الإعداد المطلوب ـ يواكبه دائماً اعتقاد المسلم بأن النصر من عند الله، وأن عونه وتأييده كائنان لهذه الأمة إن هي أخذت بالأسباب، وقدمت جهد طاقتها، ولم تبخل على ما به قوام وجودها وسعادتها في الدارين بشيء من النفس أو المال أو أي طاقة أو كفاءة مستطاعة.

وهذا اليقين قد جاءت الوقائع في الماضي والحاضر مؤكدة له وموثقة؛ فمنذ أخذت الدعوة طريقها في مكة، إلى أن خاضت معاركها على صعيد الجيش والمواجهة في المدينة بعد الهجرة، وفي كل مراحل التاريخ وتقلباته حتى في الأندلس، ومع التتار والصليبيين، وفي ظل الخلافة أخيراً، ناهيك عن أحداث لا نعلم عنها إلا القليل.. كان الأمر واضحاً كالشمس في رابعة النهار حيث تظهر آيات الله في الوقائع وتقليب الأمور، فترى النصر ينبعث من ظواهر الهزيمة، والفرج ينبت من قلب الشدة. وذلك ما يشد دائماً من سواعد الفتية المؤمنة الذين يعتقدون أن التكافؤ بين المسلم وغيره بالسلاح المادي قد يكون عسيراً إلى حد بعيد، وأن هناك بديلَ خير عن هذا، وهو نصر الله وعونه وتأييده، بعد صدق النية والأخذ بالأسباب كالذي قصه الله علينا في القرآن، مما كان سمة كثير من الوقائع، وكالذي جرى على حلبات الصراع بين الإسلام وأعدائه مما أثبتت الروايات الموثقة وقوعه، وأثره في المعارك ونتائجها إلى المدى البعيد.

هذا وعندما يبلغ الأمر مداه من التحقق بهذا الذي رسمه القرآن وبينته السيرة بالواقع العملي، واقترن ذلك بالمقصد الأسمى - وهو تحقيق العبودية لله على هذه الأرض - في إطار من تقوى الله وابتغاء مرضاته، والتخلي عن مراداتنا القريبة إلى ما يريده هو سبحانه.. أقول: عندما يبلغ الأمر مداه على هذه الشاكلة ترى العجب العجاب من لطف الله بعباده المؤمنين، وإكرامه لهم بالثبات والصبر والمصابرة، وإزاحة الكثير من الركام على شكل لم يكن في الحسبان.

وهذا في نظرنا من الدلائل على وجود الله تعالى وقدرته سبحانه . . وذلك بعض من مدلول قوله جل وعلا : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ** ﴾ فالآيات الدالة على وجوده وقدرته ، وصدق رسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا تنحصر في تلك المظاهر الكونية التي يتمثل العجز عن إدراكها في قوله سبحانه : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ** ﴾ إن هذا ـ في واقع الأمر ـ لون من ألوان تلك الآيات الباهرة حيث بدأ الإنسان يدرك اليسير اليسير منه بعد أن زحف آلاف الآلاف من السنين . ولكن وراء ذلك الكثير الكثير ، ومنه هذا الذي نتحدث عنه في إطار لطف الله ورحمته بعباده المؤمنين إن هم استقاموا على الطريقة ، وعقدوا العزم على التزام الطريق صادقين صابرين .

ولسنا بسبيل أن نعيد إلى الأذهان ما وقع في كثير من مراحل تاريخنا المثقل بالوقائع والأحداث ، وتآمر أعداء الله والإنسانية على هذه الأمة . . فلقد يكون فيما تلده الليالي من جديد ، وما تفجؤك به مدلولات الوقائع آيات من آيات الله التي قد يصرفنا عنها ثقل المطارق التي تنزل علينا صباح مساء . . . ولكنك إذا وقفت وقفة الناقد البصير ترعى الأحداث ومدلولاتها وجدت أنه قد يقع لهذه الأمة بين عشية وضحاها من الخير ما لو قدمت في سبيله كرائم تضحياتها لم يقع على الشكل الذي أراد الله له أن يقع .

وفي ظل ذلك ترى من الخير ما يتمثل في إزاحة كثير من الركام ، ثم في انكشاف حقائق مارى في وجودها المارون ، وحاول التعفية عليها

المموهون، فإذا بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة الواضحة تخرس ألسنة السوء، وتقطع دابر المعاندين والمكابرين، خصوصاً فيما يتعلق بطبيعة منهج ما صلاحاً أو فساداً من حيث قربه أو مجافاته لأصالة الأمة وتراثها، ثم مدى ارتباط أهله بأبناء جلدتهم داخلاً، أو فيما وراء ذلك خارج هذا النطاق، مما يتبين معه ـ كما أسلفنا ـ زيف تلك الدعاوى الفارغة.

ولقد تكون بعض النكبات مفتاحاً حقيقياً لكثير من التغيير الصادق والتحول إلى ساحة العمل المثمر إن كان من بيدهم أمر التغيير أهلاً للإفادة والتذكر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

فإذا تجاوزت نطاق قضيتنا الكبرى في فلسطين والاحتلال، لأن التآمر فيها أصبح أوضح من الواضحات. ألا ترى إلى ما يحدث في غيرها.. يموت جندي بريطاني في آيرلندا الشمالية فتهتز الأرض، وتبحُّ الحناجر، وتلهث أجهزة الإعلام في كل صقع من أصقاع العدو. وتقع المجزرة في الفيلبين فلا يعيرها مدّعو الحرية ونقاء التاريخ ما يعيرونه لانتهاء حياة دجاجات عشر في مزرعة زنيم واحد من أولئك اللؤماء.. أليس لذلك من مدلول؟ أم نحن أصبحنا غير قادرين على أن ندرك أيَّ مدلول؟ وأكثر من هذا.. ألا ترى إلى التباكي المستمر على أوضاع شرقي باكستان؟ إن الإنسان العادي ـ في ظروف طبيعية ـ لا يحتاج إلى الكثير من التأمل حتى يربط بين الحوادث ويردها إلى أصولها وبواعثها؛ ضجةٌ هنا، وعويل هناك، وإشفاق على فرد أو أفراد يصل إلى أروقة الأمم المتحدة، ويصحب ذلك كله تهاونٌ

بمصير بلد بكامله، وسعي إلى انفصاله وبتر الأخ عن أخيه.. وفي يوم واحد يقطع بلدُ الدعاوى والمعونات!! كلَّ المعونات الاقتصادية والعسكرية عن باكستان، ويستقبل أربعة عشر إنساناً من السفارة الباكستانية في ذلك البلد ويعطون حق اللجوء السياسي فيه.. سبحان الله! ما هذه المصادفات التي يلتقي معها مصادفةً أيضاً احتجاجات من الجوار ومظاهرات وتأييدات...

ألا إن الذي تقتضينا الأمانة قوله ـ والحديث موصول بصدر هذا الكلام ـ أنا لو خرجنا من جلدنا في نسبتنا إلى هذ الأمة بأصالتها وتاريخها وتراثها الذي يحمل كل خصائص الحياة والاستمرار.. فلن يصدقونا، والحقد هو الحقد، ومظاهرة الباطل على حقنا هي المظاهرة، وليس غير القوة بمغنينا أمام عدوانهم من شيء؟ فإذا جدَّ الجدُّ وذرت الفتنة بقرنيها، وألفوا أن هذه الأمة بدأ قلبها ينبض بالحياة، رأيت مكر الثعلب، وفحيح الأفعوان.

وفي ضوء ما ذكرنا من قبل يا حبذا لو وعت هذه الأمة ـ والمسؤولية أولاً على من بيدهم الأمر ـ يا حبذا لو وعت طريقها، حتى نرى بلداً كباكستان ـ مثلاً ـ تحاول جادة ـ وقد كان انفصالها عن الهند من أجل الإسلام ـ: أن تعود بأبنائها إلى ساحة الأصالة وسلامة المنطلقات في عقيدة الأمة وتاريخها ولغتها العربية، والمفهومات التي بها سادت العالمين، وبذلك تقود أبناءها بالعقيدة والمعرفة، وتدفع بهم إلى ساحات الجهاد راضين فرحين، مطمئنين إلى قول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**﴾.

إنها إن فعلت ذلك في المدرسة والمصنع والجيش، وجعلت للعربية مكان الصدارة في ثقافتها وصلتها بالقرآن والسيرة والتاريخ، وأقامت من الجهاد عقيدة تفتح الآفاق للمقاتلين، وأفادت من الحضارة الحديثة معرفة تحقق معها قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ إنها إن فعلت ذلك استطاعت ـ بعون الله ـ أن ترد عاديات الزمن خصوصاً وقد تداعى عليها الأعداء كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.

وهكذا يختلف الجديدان، ومع كل فجر صرخة مؤرقة ونكبة تكاد تنسي التي سبقتها: تشدنا إلى الذي دعانا إليه القرآن، وبينه رسولنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ، من الوقوف بعناد وإصرار عند الحقائق التي جاءنا بها ـ من عند ربه ـ. غير أنا وقد طال الأمد، واضطرب حبل الصلة بيننا وبين تلك الحقائق، تجدنا وكأنا قد فقدنا وسائل التذكر، وحيل بيننا وبين أخلاق المؤمنين المجاهدين.

وهنا يأتي دور إثارة الكوامن الإيمانية، والإفادة من كل المشاعر الصادقة التي تبدو وهي صور طبيعية لانعكاس الإيمان على النفوس، ولابد أن يقوم بهذا الدور أهله البررة الذين لا تزيدهم الكوارث إلا ثباتاً على الحق، حتى يتخذوا من البلاء نفسه معواناً لهم على متابعة الطريق، الطريق التي فيها مرضاة الله والتحقق بالعبودية له وحده سبحانه، وترى من مظاهر أهليتهم لحمل العبء: ما يكون من حرقة صادقة على الأمة، ووعي أمين لقضاياها، ولهفة على البذل في كل ساحة تقتضيه.

ومن المسلمات التي لا تحتاج إلى طويل بحث، أن الذي يشعر بصادق أخوة الإيمان - وأنه من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم - لابد أن تؤرقه مصائب أمته، ويدفعه إلى العمل الجاد المخلص ما يحل بها من كوارث وما يصيب ديارها وفكر أبنائها من نكبات؛ فقوته ومواهبه وطاقاته، إنما مجالها الطبيعي أن توضع في خدمة الأمة كما يشاء الله، دون التفات إلى مغنم قريب، أو دنيا مؤثرة. . وتراه بعد هذا على حال من اليقظة والحذر يخاف يوماً لا تنفع فيه الحيلة، ولا يجدي معه التمويه. وإنك واجد في هؤلاء الذين يكرمهم الله بالاستعلاء على الحطام في شتى ألوانه وزخرفه، أن قلوبهم مرتبطة دائماً بالله عز وجل، الأمر الذي يمنحهم القدرة على اقتحام المكاره مهما اشتدت ضراوتها وأطبق ظلامها، ليكون ذلك سبيلهم إلى الجنة ذاكرين قول الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾. ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾. فلا الجبن بمقصيهم عن ساحة العمل والجهاد، ولا الطمع بمستخفِّهم حتى يقعوا في أحبولة الشهوة والشيطان. ومن يدري: لعلهم يجدون ريح الجنة هنا وهناك، ومن دون كل عقبة من عقبات الطريق.

وفي أعقاب ذلك: إذا كان من البلاء الأسود أن يدمن الجيل على الخسف وأن لا تضطرم نفسه للهوان، فأكبر من ذلك أن يسهم في تمكين ذلك وجعله وكأنه ضربة لازب على الأمة، أولئك الذين يهابون الجهاد ويرعبهم أي باب من أبوابه، فيحاولون الابتعاد عن كل ما يَمتُّ إليه بصلة تحت عناوين سداها ولحمتها الزخرف المصطنع وليس أقلَّها ما يدعى: ترك العنف. . وكثيراً ما يكون طريق ذلك تعالياً على الناس باسم الدين والعلم، ونعياً على الواعين

من أبناء الأمة طريقهم، وعلى الصابرين منهجهم وسلوكهم؛ كل ذلك تحت ستار تعلُّلات لا تغني من الحق شيئاً، وتأويلات موهومة فاسدة، واعتبارات ممجوجة مزدراة أصبحت كأرجوحة الوليد لا يعيها ولا تعيه. وهل عليك من بأس إذا قلت: إن التعالي على الآخرين باسم الدين والعلم بعيداً عن أخلاق الإسلام، كثيراً ما يكون صورة عن الانهزام النفسي والجبن الخالع من طريق (أولئك الآخرين) الشاقة الطويلة المثقلة بالتكاليف والالتزامات، والتي تبدو متشابكة مع المغارم وهي أبعد ما تكون عن المغانم!!

ومنذا الذي يدرك ببصيرته أنه ـ بفضل الله ـ على درب من ميراث النبوة، ثم يطمع أن تفرش له الأرض بالأزاهير، وأن يطبل له الظالمون والمنحرفون ويزمروا، وكيف لا يكون ذلك والصادق المصدوق الذي أوتي جوامع الكلم يقول: [**حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره**]. وهي كلمات على وجازتها واختصارها، تضع القانون الخالد الذي لا يغفل عنه أو يتجاهله إلا من ران على قلبه الضياع، ولا يتجاوزه إلا من ضلَّ سعيه وخاب فأله، فالمكاره طريق المؤمنين المجاهدين الصابرين إلى الجنة، هي وسيلتها وهي مفتاحها، والشهوات تحف بالنار من كل جانب، والمترامون عليها الذين أحاطت بهم خطيئتهم تكون جسرهم لينكبوا على وجوههم في جهنم وبئس المصير.

اللهمَّ يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك، واحفظنا من الفتن ووساوس الشيطان، وباعد بيننا وبين أولئك الذين أحاطت بهم خطيئتهم؛ فكانت جسرهم إلى غضبك وعقابك، إنك أنت العزيز الحكيم. والحمد لله رب العالمين.